

**الكراهية من منظور معرفي**  
**أو كيف يعرف السلام نفسه من داخل جراح العالم**

**رمضان مصطفى سليمان**



## في معرفة الأشياء بأضدادها

منذ أن فتح الإنسان عينيه على العالم ، وهو يتعلم الأشياء من خلال ظلالها بقدر ما يتعلمها من أنوارها. فالليل ليس غياب النهار فحسب، بل هو المرأة التي تجعل النهار ممكناً في الإدراك. والعطش هو الذي يمنح الماء معناه العميق، كما أن المرض يجعل الجسد يكتشف صحته التي كانت تمرّ صامتة في دمه وأعضائه.

وكذلك الأمر مع السلام والحرب.

فالحرب ليست مجرد نقيض للسلام ، بل هي أحد المرايا التي تعكس معناه. وحين تشتعل المدن، ويصبح الدخان لغة السماء، يدرك الإنسان فجأة قيمة النافذة المفتوحة على الطمأنينة، وقيمة الطريق الآمن، وقيمة النوم الذي لا تقطعه صفارات الإنذار.

غير أن السلام لا يستمد وجوده كله من الحرب، ولا يحتاج دائماً إلى الخراب كي يثبت حضوره. فهناك مستوى أعمق من المعرفة، مستوى يصبح فيه السلام شاهداً على نفسه، ودليلاً على ذاته، ومصدراً لمعناه الداخلي.

إن السلام ، في جوهره، يشبه النور الذي لا يحتاج إلى مصباح آخر كي يثبت أنه مضيء.

إنه يعرف بنفسه، ويعرف نفسه بنفسه.

وفي هذا تكمن مفارقتة الكبرى وجماله الخفي.

## الاختلاف بوصفه قانون الوجود

ليس في هذا العالم شيء أكثر حضوراً من الاختلاف.

اختلاف الوجوه، والأصوات، والألوان، واللغات، والذاكرات، وحتى الأحلام التي تنام في رؤوس البشر لا تتشابه إلا بقدر اختلافها.

وكأن الوجود، منذ بدايته الأولى، اتخذ قراراً سرياً بالألا يكرر نفسه. فالتكرار موت مبكر للأشياء، بينما الاختلاف هو الطريقة التي يتنفس بها الكون.

إن الوردة لا تنافس النجمة، والبحر لا يحاول أن يصبح جبلاً، والنهر لا يشعر بالنقص لأنه ليس غابة. كل شيء يمضي نحو كماله الخاص، لا نحو صورة الآخر.

لهذا كان الاختلاف ضرورة وجودية قبل أن يكون ظاهرة اجتماعية.

إنه شرط الخلق الأول.

وهو كذلك شرط الإغناء والتكامل، لأن العالم الذي يتكون من نسخة واحدة من البشر والأفكار والأمزجة هو عالم محكوم بالجمود والعقم.

غير أن الاختلاف يحمل في داخله مفارقة دقيقة. فالشيء الذي يملك القدرة على الإغناء يملك أيضاً القدرة على التناثر. وما يجعل اللقاء ممكناً، يجعل الصدام ممكناً كذلك.

إن كل اختلاف يحمل في أعماقه إمكانية القطيعة كما يحمل إمكانية الحوار.

ولهذا تبدو الكراهية أحياناً كأنها الظل الطبيعي للاختلاف حين يفشل في اكتشاف مساحات المشاركة. الكراهية ليست دائماً شراً طارئاً، بل قد تكون لغة الخوف حين يعجز عن الكلام بلغة أخرى.

إن الإنسان يخاف مما لا يفهمه، ويعادي ما يعجز عن تأويله، ويهاجم أحياناً ما يذكره بنقصه أو هشاشته أو أسئلته المؤجلة.

ولهذا فإن جزءاً كبيراً من الكراهية هو عجز معرفي قبل أن يكون انحرافاً أخلاقياً.

### الكراهية باعتبارها جهلاً بالآخر

في أعماق النفس البشرية يقيم كائن خائف أكثر مما يقيم كائن شرير. وحين يشعر الإنسان أن هويته مهددة، أو أن عالمه الداخلي يتصدع، يبدأ ببناء الجدران النفسية.

الكراهية واحدة من هذه الجدران. إنها محاولة بدائية لحماية الذات عبر إقصاء الآخر. فالآخر المختلف في الدين أو اللغة أو العرق أو الرأي يتحول بسهولة إلى مرآة مزعجة تفضح حدودنا المعرفية، وتكشف ضيق خرائطنا الداخلية.

ومن هنا تبدأ عملية الاختزال. يتحول الإنسان من عالم كامل إلى صفة واحدة. ويتحول التاريخ الطويل لشخص ما إلى صورة ذهنية صغيرة. ثم تتحول الصورة إلى حكم، والحكم إلى موقف، والموقف إلى كراهية.

إن الكراهية تبدأ غالباً حين تتوقف المعرفة.

ولهذا كان العلاج الأول للكراهية هو توسيع مساحة الرؤية. فالإنسان لا يكره من يعرفه معرفة حقيقية. وكلما اقتربت الأرواح من بعضها انكسرت الصور الجاهزة.

يقول المتصوفة إن الجهل حجاب، وإن الحجاب إذا سقط ظهر وجه الحقيقة.

وربما كانت الكراهية كلها نوعاً من الحجاب الكثيف الذي يمنع القلب من رؤية الإنسان المختبئ خلف الاسم والهوية والانتماء.

### الحاجة إلى عامل يتجاوز التنافر

إذا كان الاختلاف قانوناً للوجود ، فإن السؤال الذي يفرض نفسه

هو :

كيف يستمر العالم ؟ كيف تعيش الذرات المختلفة داخل الجسد الواحد ؟ وكيف تتجاوز اللغات في المدينة الواحدة ؟ وكيف ينجو الإنسان من الحرب الدائمة مع كل من يشبهه قليلاً أو يختلف عنه كثيراً ؟

كان لابد من ظهور قوة أخرى. قوة لا تلغي الاختلاف بل تنظمه. لا تذيب الحدود بل تجعلها قابلة للعبور. هذه القوة هي السلام.

ليس السلام غياب الصراع كما يظن كثيرون ، بل هو القدرة على إدارة الصراع دون تحويله إلى عدااء وجودي.

إنه الفن الصعب الذي يجعل المختلفين قادرين على الجلوس حول الطاولة نفسها دون أن يحمل كل واحد منهم خنجرًا تحت المعطف.

السلام ليس إنكاراً للاختلاف، بل اعتراف ناضج به.

ولعل هذا ما يجعل السلام أكثر تعقيداً من الحرب. فالحرب قرار سريع، أما السلام فهو عمل طويل من التربية والصبر وإعادة بناء المعاني.

## الاتفاق بوصفه التجلي العملي للسلام

حين يلتقي المختلفون على أرض مشتركة يولد الاتفاق. والاتفاق ليس مجرد ورقة توقعها الأيدي ثم تنساها الأدرج. إنه حدث معرفي وأخلاقي عميق. إنه إعلان جماعي بأن ما يجمع البشر أكبر مما يفرقهم. قد يكون الاتفاق قيمة عليا مثل العدالة أو الكرامة أو الحرية. وقد يكون مصلحة مشتركة تحفظ البقاء.

وفي الحالتين فإن الاتفاق يشكل جسراً فوق هوة الاختلاف. ومن هنا يصبح الاتفاق أحد الأسماء العملية للسلام.

فالسلم لا يعيش في التجريدات وحدها.

إنه يحتاج إلى لغة وقوانين ومؤسسات وعادات وطقوس يومية تحميه من التآكل. إنه يحتاج إلى تفاصيل صغيرة :

إلى احترام الدور في الطابور. إلى الإصغاء أثناء الحوار. إلى الاعتذار حين نخطئ. إلى الاعتراف بحق الآخر في أن يرى العالم من نافذة مختلفة.

هذه التفاصيل الصغيرة هي الحجارة التي يبني منها السلم الكبير.

## السلم التركيبي

يمكن وصف الاتفاق بأنه شكل من أشكال السلم التركيبي.

سلم لا يقوم على التشابه، بل على القدرة على جمع المختلف داخل بنية واحدة.

مثلاً تجمع السمفونية أصوات الآلات المختلفة دون أن تطلب من الكمان أن يصبح نايًا، أو من الناي أن يتحول إلى طبل.

إن قيمة الموسيقى ليست في التشابه، بل في التناغم.

وكذلك المجتمعات. فالمجتمع الحي ليس المجتمع الذي ينجح في إنتاج نسخ متطابقة من البشر، بل المجتمع الذي ينجح في تحويل الاختلاف إلى طاقة بناء.

إن السلم الحقيقي لا يقضي على التعدد، وإنما يمنحه إيقاعاً مشتركاً. ومن هنا يتحول ما كان قابلاً للقطيعة إلى قابلية للتعايش. ويتحول ما كان مشروع صراع إلى مشروع مشاركة.

وهذا هو الانتصار الأعظم للإنسان.

## البعد النفسي والاجتماعي للسلام

الإنسان المسالم ليس إنساناً بلا غضب، بل إنسان يعرف كيف يروض غضبه. فالسلام يبدأ من الداخل قبل أن يظهر في الخارج. إن الحروب الكبرى غالباً ما تكون انعكاساً لحروب صغيرة تدور داخل النفوس. حروب الخوف والغيرة والنقص والشعور بالإهانة. وحين يعجز الفرد عن التصالح مع ذاته، يبدأ بمحاربة العالم. لهذا تحدث علماء النفس عن العلاقة العميقة بين السلام الداخلي والسلام الاجتماعي.

فالفرد الذي يشعر بالأمان أقل ميلاً إلى العدوان. والشخص الذي يجد الاعتراف والاحترام لا يحتاج إلى إثبات وجوده عبر الإلغاء أو السيطرة. إن المجتمعات التي تنتج الكرامة تنتج السلام، أما المجتمعات التي تنتج الإذلال فإنها تزرع بذور الكراهية في تربتها اليومية.

## الإشارة الصوفية ومعنى الصلح الأكبر

في التجربة الصوفية لا يُنظر إلى الآخر بوصفه غريباً تماماً. فكل الأرواح، مهما تباعدت، تحمل نفخة واحدة من السر الإلهي. ولهذا كان العارفون يتحدثون عن " الصلح الأكبر "؛ الصلح مع النفس، ومع العالم، ومع الزمن، ومع الله. وحين يصل الإنسان إلى هذا المقام يكتشف أن العداوات الكثيرة التي حملها كانت أثقل من أن يحتملها قلب واحد. يقال إن القلب الممتلئ بالمحبة يشبه نافذة مفتوحة على البحر. كلما دخلتها الريح اتسعت. أما القلب الممتلئ بالكراهية فيشبه غرفة مغلقة يحترق هواؤها بنفسه.

ولعل هذا ما قصده المتصوفة حين قالوا إن أعظم الفتوحات ليست فتح المدن، بل فتح القلب.

## الإنسان بوصفه مشروع سلام

ربما كانت الكائنات الأخرى أكثر انسجاماً مع غرائزها، لكن الإنسان يمتلك ميزة لا يشاركه فيها كثير من الموجودات :

قدرته على تجاوز طبيعته الأولى.

إنه الكائن الذي يستطيع أن ينتصر على خوفه، وأن يهزم عداؤه، وأن يحول الاختلاف إلى شراكة.

وهذه ليست مهمة سهلة.

فالسلم ليس حالة طبيعية دائمة، بل هو إنجاز أخلاقي ومعرفي يتطلب جهداً مستمراً. إنه تدريب يومي على الإصغاء، وعلى التأويل الرحيم، وعلى الاعتراف بالآخر.

وحين ينجح الإنسان في ذلك، فإنه لا يحقق انتصاراً سياسياً أو اجتماعياً فحسب، بل يحقق انتصاراً وجودياً على أكثر مناطق الظلم في داخله.

هناك فقط يصبح السلم قادراً على أن يعرّف نفسه بنفسه. لا بوصفه غياباً للحرب، بل بوصفه حضوراً كاملاً للإنسانية.

## الانسجام فنُّ إقامة الجسور بين الجزر المنعزلة

### العالم بوصفه سيمفونية من الاختلافات

ليس الكون حقلاً للتشابه كما نتوهم أحياناً، بل حديقة واسعة من الفروق الدقيقة، وغاية من الأصوات المتجاورة، وبحراً من الكائنات التي لا يشبه بعضها بعضاً إلا في حاجتها المشتركة إلى البقاء والمعنى.

كل شيء في الوجود يعلن اختلافه: الوجوه، واللغات، والذاكرات، وطرائق الحب، وأساليب الحزن، وحتى النجوم التي تتجاور في السماء لا تحترق بالطريقة ذاتها ولا تضيء بالمقدار نفسه. ومع ذلك لا يتحول الكون إلى فوضى شاملة، لأن هناك قوة خفية تشبه الخيط الذي يجمع حبات العقد، أو النهر الذي يحمل الروافد المختلفة إلى مصب واحد. تلك القوة هي الانسجام.

الانسجام ليس إلغاءً للفوارق، ولا دعوة إلى الذوبان الكامل في الآخر، بل هو القدرة على أن تبقى نفسك دون أن تتحول إلى سجن، وأن تستقبل الآخر دون أن يتحول حضوره إلى احتلال.

إنه الحكمة التي تجعل الأشجار المختلفة تنقسم تربة واحدة، وتجعل الطيور المتعددة الألوان تحلق تحت سماء واحدة، وتجعل البشر، رغم اختلاف طبائعهم ومعتقداتهم وأحلامهم، قادرين على الجلوس حول مائدة الحياة نفسها.

### التنازل بوصفه شكلاً من أشكال الحكمة

يولد الإنسان وفي داخله رغبة عميقة في تأكيد ذاته، وفي الدفاع عن حدوده الخاصة، وفي حماية عالمه الداخلي من التلاشي. غير أن الحياة تعلمه تدريجياً أن الوجود المشترك لا يُبنى بالقوة وحدها، بل بشيء من التنازل، وشيء من المرونة، وشيء من الإصغاء.

فكل علاقة إنسانية، مهما كانت طبيعتها، تحمل في أعماقها قدراً من التراجع المتبادل عن المطلق.

الأسرة تقوم على ذلك. والصدقة تقوم عليه. والحب نفسه لا يعيش إلا به.

إن الإنسان الذي يتمسك بكامل صورته عن نفسه، ويرفض تعديل أي زاوية من زواياها، يشبه صخرة صلبة في مجرى النهر؛ قد تبدو قوية، لكنها عاجزة عن السفر.

أما الإنسان القادر على التنازل الحكيم، فهو يشبه الماء؛ لا يفقد جوهره حين يغير شكله، ولا يخسر هويته حين يعبر الأواني المختلفة.

التنازل هنا ليس هزيمة، بل هو شكل راقٍ من أشكال الوعي بالآخر، وإدراك أن الحقيقة أوسع من أن تسكن عقلاً واحداً، وأن العالم أكبر من أن يُرى من نافذة منفردة.

### التداخل الخلاق بين الكائنات

لا توجد ذات مكتفية بنفسها بصورة مطلقة.

حتى أكثر البشر انعزلاً يحمل في لغته كلمات تعلمها من الآخرين، ويحمل في ذاكرته وجوهاً صنعت جزءاً من شخصيته، ويحمل في روحه آثاراً لمدن عبرها، وأصواتاً سمعها، وكتباً قرأها، وأحزاناً لم تكن أحزانه وحده.

إننا نعيش داخل شبكة هائلة من التأثيرات المتبادلة. الفرد يسكن الجماعة. والجماعة تسكن الفرد.

وكما يقول المتصوفة: " الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق "، إلا أن تلك الأنفاس جميعاً تتحرك في هواء واحد.

ولعل أعظم أوهام العصر الحديث هو الاعتقاد بأن الاستقلال يعني الانفصال.

فالاستقلال الحقيقي لا يعني أن يغلق الإنسان أبوابه، بل أن يعرف حدوده وهو يمد الجسور نحو الآخرين.

الشجرة مستقلة بجذورها، لكنها لا تستطيع الحياة بعيداً عن المطر والضوء والرياح والتربة. وكذلك الإنسان.

### صناعة الانسجام بوصفها مهارة وجودية

إن القدرة على جمع العناصر المختلفة داخل وحدة منسجمة هي واحدة من أرقى قدرات الإنسان الحضارية والروحية.

فالإنسان لا يصنع الأدوات فحسب، بل يصنع المعاني أيضاً.  
يصنع السلام بين أفراد الأسرة. ويصنع التفاهم بين الأصدقاء .  
ويبني الجسور بين الجماعات. ويعيد ترتيب العلاقة بين الإنسان  
والطبيعة. ويسعى، منذ فجر التاريخ، إلى تخفيف قسوة العالم بواسطة  
الفن والفكر والمحبة.

وهكذا يصبح الانسجام مشروعاً دائماً لا ينتهي.

سلام نفسي داخل الذات. و سلام أسري داخل البيت. و سلام  
اجتماعي داخل الجماعة. و سلام إنساني يتجاوز الحدود والجغرافيا  
واللغات.

إن البشرية كلها، في جوهرها العميق، ليست سوى محاولة طويلة  
للعثور على صيغة تجعل الاختلاف قابلاً للحياة.

### الحاجة إلى الاختلاف

لكن الانسجام لا يعني القضاء على التعدد. فالعالم الذي تختفي فيه  
الفروق يصبح عالماً بلا إبداع.

إن النهر يحتاج إلى الضفتين. والقصيدة تحتاج إلى الصمت بين  
الكلمات. واللوحة تحتاج إلى الظل بقدر حاجتها إلى الضوء. وكذلك  
الحياة.

فالاختلاف ليس خطأً في النظام الكوني، بل جزء من حكمته.

لو تشابه البشر تماماً لانطفأت الأسئلة، ولانتهت المغامرة  
الإنسانية، ولما وُلد الفن ولا الفلسفة ولا الاكتشاف.

إن الحضارات نفسها قامت على الحوار بين المختلفين، لا على  
تكرار المتشابهين.

ولهذا فإن الحاجة إلى الاختلاف هي في الوقت نفسه حاجة إلى  
الحياة.

إننا لا نخاف الاختلاف لأنه شر، بل لأننا لم نتعلم بعد كيف نصنع  
معه انسجاماً.

### روح المؤلف المختبئة داخل المختلف

في قلب كل اختلاف توجد بذرة خفية من الائتلاف. فالأشياء  
المتباعدة ظاهرياً تلتقي غالباً في مستوى أعمق.

الجميع يبحث عن الأمان. الجميع يخاف الفقد. الجميع يريد الاعتراف بوجوده. الجميع يحلم بأن يكون لحياته معنى.

ومن هنا تتبع إمكانية اللقاء.

إن المختلف لا يستطيع أن يسمح لنفسه بالفناء، لأنه يحمل داخله رغبة دفينية في الاستمرار، وهذه الرغبة نفسها تدفعه إلى البحث عن الآخر.

فالكائن المنعزل تماماً يشبه نجمة انطفأت بعيداً عن المجرة.

قد تبقى موجودة لبعض الوقت، لكنها لن تعود جزءاً من السماء.

ولهذا فإن استقلال الكائن لا يكتمل إلا بعلاقته بغيره.

الذات تحتاج إلى مرآة الآخر لكي ترى نفسها.

واللغة تحتاج إلى السامع لكي تصبح لغة.

والمحبة تحتاج إلى متلقٍ لكي تتحول من شعور داخلي إلى واقع.

### القطيعة بوصفها بداية التلاشي

حين تتحول الاستقلالية إلى قطيعة مغلقة يبدأ الذبول الوجودي.

فالإنسان الذي يرفض الآخرين تماماً لا يحمي نفسه، بل يحاصرها. إنه يبني حول روجه أسواراً عالية، ثم يكتشف متأخراً أنه أصبح سجين الحصن الذي بناه بنفسه.

القطيعة المطلقة ليست علامة قوة، بل شكل من أشكال الخوف. الخوف من الجرح. والخوف من الاختلاف. والخوف من فقدان السيطرة.

لكن الحياة لا تنمو في الأماكن المغلقة.

البنود تحتاج إلى الهواء. والروح تحتاج إلى الحوار.

والعقل يحتاج إلى الاحتكاك بالأفكار الأخرى.

إن الانغلاق الكامل يشبه إطفاء النوافذ في بيت قديم؛ في البداية يمنع الغبار، لكنه يمنع الضوء أيضاً.

## الشوق الإنساني إلى الآخر

في أعماق الإنسان حنين دائم إلى الآخر.

حتى الناس الذين يعلنون اكتفاءهم بأنفسهم يحملون في داخلهم رغبة خفية في الاعتراف المتبادل، وفي المشاركة، وفي أن يجدوا من يشهد على وجودهم.

ربما لهذا السبب كتب الشعراء قصائدهم، ورسم الفنانون لوحاتهم، وبنى المتصوفة خلواتهم؛ كانوا جميعاً يبحثون عن لقاء ما.

وفي التراث الصوفي ترد فكرة أن الكائنات كلها تتحرك بالشوق. شوق الأرض إلى المطر. وشوق البحر إلى النهر. وشوق الإنسان إلى المعنى. وفي هذا الشوق تكمن الحركة الكبرى للوجود.

فالآخر ليس تهديداً دائماً، بل قد يكون الامتداد الذي يكتمل به النفس، أو المرأة التي ترى الذات فيها صورتها الأكثر وضوحاً.

## الإنسان ممثل على خشبة الوجود

يشبه الإنسان ممثلاً يصعد إلى خشبة مسرح الحياة حاملاً دوراً لا يعرف تفاصيله كاملة. يأتي إلى العالم دون نص مكتوب، ثم يبدأ تدريجياً في اكتشاف شخصيته ومهمته وعلاقته بالآخرين.

بعضهم يختار أن يكون مصدراً للضوء. وبعضهم يختار أن يكون عبئاً على المشهد.

لكن الجميع، مهما طال الزمن، يغادرون المسرح في النهاية، ويبقى السؤال الوحيد :

ماذا أضفنا إلى العرض الكبير ؟ هل تركنا أثراً من الطمأنينة ؟ هل ساعدنا أحداً على العبور ؟ هل جعلنا العالم أقل قسوة بقليل ؟

إن القيمة الحقيقية للإنسان لا تقاس بقدرته على الانتصار على الآخرين، بل بقدرته على جعل وجود الآخرين أكثر احتمالاً.

## الانسجام باعتباره ضرورة بقاء

ليس الانسجام ترفاً أخلاقياً ولا زينة فكرية. إنه شرط من شروط البقاء.

فالأسرة التي تفقده تنتفك.

والمجتمعات التي تعجز عن إنتاجه تدخل في دوائر الصراع.  
والحضارات التي ترفضه تتحول إلى أنقاض تتحدث عنها كتب  
التاريخ.

ولهذا يصبح الكشف عن المشتركات الإنسانية نوعاً من العمل  
الوجودي العميق.

إنه أشبه بإشعال مصباح صغير داخل غرفة مظلمة.

لا يزيل الظلام كله، لكنه يجعل العيش ممكناً.

### نحو حكمة العيش مع الاختلاف

ربما لا يستطيع الإنسان أن يزيل الاختلاف من العالم، وربما لا  
ينبغي له أن يفعل ذلك أصلاً. لكن ما يستطيع فعله هو أن يتعلم فن العيش  
معه. أن يرى في التنوع فرصة لا تهديداً. وفي الآخر احتمالاً للإثراء لا  
سبباً للخوف. وفي الحوار طريقاً للبقاء المشترك.

فالكون لم يُبنَ على التطابق، بل على التناغم.

والموسيقى لا تولد من نغمة واحدة، بل من اجتماع النغمات  
المختلفة داخل إيقاع واحد.

وهكذا أيضاً الإنسان.

ليس مطلوباً منه أن يكون نسخة من الآخرين، ولا أن يحول  
الآخرين إلى نسخ منه، بل أن يشارك معهم في تأليف تلك السيمفونية  
الكبرى التي نسميها الحياة.

## الهدوء السكينة بوصفها شرطاً لولادة السلام

### الكائن بين امتلائه ووحدته

ليس في الوجود شيء فارغ من ذاته، ولا شيء يعيش خارج حدوده الخاصة. فكل موجود، صغيراً كان أم عظيماً، يحمل في أعماقه طاقة خفية تشبه النواة الأولى للنجوم؛ طاقة ذاتية تحفظ تماسكه، وتصون فرادته، وتمنحه إحساسه الغامض بأنه شيء قائم بذاته لا يشبه سواه.

غير أن الكائن، في الوقت نفسه، ليس جزيرة معزولة في محيط الوجود. إنه محاط بشبكة لا تنتهي من العلاقات والارتباطات والتأثيرات المتبادلة. يعيش داخل الآخرين كما يعيش الآخرون داخله، ويتشكل بهم كما يتشكلون به. وهنا تبدأ المفارقة الكبرى: فكلما اشتدت الذات في تأكيد حدودها، ازداد ميلها إلى الانغلاق، وكلما بالغت في حماية اختلافها، اقتربت من العزلة والخوف والارتباب.

من هذا التوتر القديم بين الرغبة في الحفاظ على الذات والحاجة إلى الآخر، يولد الصراع بوصفه أحد وجوه الوجود، لا بوصفه خطأً عارضاً في التاريخ.

إن الاختلاف ليس جرحاً في العالم، بل هو طبيعة العالم نفسه. لكن المشكلة لا تكمن في الاختلاف، وإنما في الطريقة التي يُدار بها الاختلاف.

فالاختلاف الذي يُترك لعنف الغرائز يتحول إلى تنازع، أما الاختلاف الذي تهذبته الحكمة فيتحول إلى تناغم يشبه اختلاف الآلات داخل سمفونية واحدة.

وهنا يبدأ الهدوء عمله السري.

### الهدوء ليس غياب الضجيج

يُخطئ كثيرون حين يظنون أن الهدوء مجرد غياب للصوت، أو انطفاء للحركة، أو استراحة مؤقتة بين نزاعين.

فالهدوء الحقيقي ليس صمت المكان، بل سكونة المعنى.

قد يكون الإنسان في قلب الصحراء وتضح داخله الحروب، وقد يكون وسط الأسواق والوجوه والضوضاء بينما يقيم في داخله نهر هادئ لا تعكره الرياح.

الهدوء فعل وجودي قبل أن يكون حالة نفسية.

إنه القدرة على وضع الأشياء في مواضعها، وإعطاء كل قوة حدودها، وكل رغبة حجمها، وكل خوف اسمه الحقيقي.

وحين يحدث ذلك، تتراجع الفوضى الداخلية كما يتراجع المد عن الشاطئ، وتظهر تضاريس الروح واضحة للمرة الأولى.

يشبه الهدوء بحيرة صافية؛ لا لأنه يمنع الحجارة من السقوط فيها، بل لأنه يمتلك القدرة على استعادة صفائه بعد كل اضطراب.

### من بطن الاختلاف تولد الألفة

في الطبيعة لا تتشابه الأشجار، ولا تتشابه الوجوه، ولا تتشابه المصائر. حتى الورقتان اللتان تنبتان على الغصن ذاته تحمل كل واحدة منهما قدراً خاصاً من الضوء والظل.

إن التنوع قانون الوجود الأول.

غير أن الإنسان كثيراً ما يحاول تحويل العالم إلى نسخة من ذاته، فإذا فشل شعر بالتهديد، وإذا شعر بالتهديد لجأ إلى العنف.

وهكذا يتحول الاختلاف من فرصة للاكتمال إلى ذريعة للإقصاء.

لكن الوجود يعلمنا درساً آخر.

فالأنهار لا تتصارع لأنها مختلفة، والرياح لا تحارب الجبال لأنها ليست مثلها، والليل لا يشعر بالغيرة من النهار. إنها جميعاً تؤدي أدوارها داخل نظام أوسع منها جميعاً.

وكذلك البشر.

فالاختلاف لا يهدد الحياة، بل يمنحها القدرة على الاستمرار.

إن الروح المنسجمة لا تولد من التشابه، وإنما تولد من الاعتراف المتبادل بالاختلاف.

وحين تدرك الذوات أن الآخر ليس عدواً لطبيعتها بل مكملاً لها،  
يبدأ العالم في تعلم لغته الأولى: لغة التعاطف.

### الترويض الجميل للقوى

في داخل كل إنسان قوى متعارضة. فيه الرغبة والخوف. فيه  
الحنين والرفض. فيه الأنانية والكرم. وفيه الوحش والحكيم يجلسان  
على المائدة نفسها.

والحضارة ليست انتصار أحدهما على الآخر، بل القدرة على  
تنظيم الحوار بينهما.

إن الترويض الذي تحتاجه النفس ليس قمعاً ولا إلغاءً، وإنما  
تهذيب للطاقة وتحويلها إلى فعل بناء.

فالنهر إذا تُرك بلا ضفاف أغرق المدن، لكنه إذا وُجه صار سبباً  
للحياة.

وكذلك الإنسان.

فالهدوء ليس قتل الانفعال، وإنما تعليمه السير في الطرق الآمنة.  
إنه تحويل الغضب إلى عدالة، والخوف إلى يقظة، والرغبة إلى  
إبداع.

ومن هنا يصبح الهدوء أحد أعظم أشكال القوة. القوة التي لا  
تحتاج إلى الصراخ كي تثبت وجودها.

### النزعة التكاملية ومعنى الأدوار

ما من كائن يستطيع أن يحمل العالم وحده.

الشجرة تحتاج إلى المطر. والمطر يحتاج إلى السحاب. والسحاب  
يحتاج إلى البحر. والبحر يحتاج إلى الريح.

كل شيء يكمل كل شيء. وكل نقص في مكان ما يجد تمامه في  
مكان آخر.

هذه هي الحكمة العميقة التي يقوم عليها الوجود.

إن النزعة التكاملية ليست خياراً أخلاقياً فحسب، بل ضرورة  
كونية.

فالأدوار تتوزع كما تتوزع النجوم في السماء؛ لكل منها مداره،  
ولكل منها مهمته، لكن المعنى لا يكتمل إلا بالجميع.

وحين يفهم الإنسان دوره دون أن يطمع في أدوار الآخرين، يولد  
الهدوء الاجتماعي.

ذلك الهدوء الذي لا يقوم على الاستسلام، بل على إدراك الحدود  
الطبيعية للمسؤوليات والقدرات.

إن أجمل أشكال الحكمة أن يعرف المرء متى يتقدم، ومتى يفسح  
الطريق، ومتى يصغي، ومتى يصمت.

### الهدوء الموضوعي ودفع البقاء

ثمة هدوء آخر يتجاوز حدود الفرد، هدوء لا يخص ذاتاً بعينها،  
بل يخص العالم الذي يجمع الذوات كلها.

إنه الهدوء الموضوعي الذي تحتاجه الأشياء كي تؤدي وظائفها  
في أمان.

فالزهرة تحتاج إلى الربيع كي تزهر. والطفل يحتاج إلى الطمأنينة  
كي ينمو. والفكرة تحتاج إلى الحرية كي تولد. والسلام يحتاج إلى الهدوء  
كي يبقى.

هذا الهدوء يشبه سقفاً خفياً يحمي الكائنات من سقوط السماء فوق  
رؤوسها.

إنه المناخ الوجودي الذي يمنح البشر دفع الاستمرار وإمكانية  
التواصل.

فحين يختفي الهدوء، يتحول العالم إلى ساحة طوارئ دائمة،  
وتتحول الأرواح إلى كائنات متحفزة لا تعرف النوم الحقيقي.

ولهذا فإن المجتمعات لا تبنى بالقوانين وحدها، بل تبنى أيضاً  
بمقدار السكينة التي تمنحها لأفرادها.

### السكينة في التجربة الصوفية

كان المتصوفة يسمون هذا المقام "السكون إلى الله".

ليس بمعنى الانسحاب من العالم، وإنما بمعنى التحرر من ضجيج

الأنا.

فالروح، في نظرهم، تشبه مرآة يغطيها غبار الرغبات والخوف والتعلق.

وحين تهدأ النفس، تبدأ المرأة في استعادة صفاتها، فينعكس فيها الوجود كما هو لا كما نريده نحن أن يكون.

يقول أهل الإشارة إن القلب إذا صار أوسع من المدن، وإذا اضطرب صار أضيق من إبرة.

وكانوا يرون أن السكنينة ليست نهاية الطريق، بل بدايته.

فالإنسان لا يسمع همس المعنى إلا بعد أن يسكت صخب الداخل.

وكما يحتاج الماء إلى السكون ليعكس صورة القمر، تحتاج الروح إلى الطمأنينة كي ترى حقيقتها.

إن الهدوء هنا يتحول إلى عبادة خفية، وإلى شكل من أشكال المعرفة. معرفة لا تُكتسب بالبرهان وحده، بل بالتذوق والحضور.

### السلام بوصفه كائناً عضوياً

السلام ليس اتفاقاً سياسياً عابراً، ولا هدنة مؤقتة بين خصمين. إنه كائن عضوي ينمو كما تنمو الأشجار. له جذور وأغصان وثمر. وجذره الأول هو الهدوء.

فحين يسكن الفرد، يهدأ البيت. وحين يهدأ البيت، يطمئن الحي. وحين يطمئن الحي، يستريح المجتمع.

هكذا ينتشر السلام كما ينتشر الضوء في الفجر؛ تدريجياً، بصمت، ومن دون ضجيج.

إن السلام لا يفرض بالقوة، لأن ما يُفرض بالقوة يحتاج إلى قوة أكبر لحمايته.

أما السلام الحقيقي فيعيش داخل النفوس قبل أن يظهر في المؤسسات والحدود والخرائط.

ولهذا يصبح الهدوء شرطاً ضرورياً لوجود السلام واستمراره. بل يصبح أحد أعضائه الأساسية، كما يكون القلب عضواً أساسياً في الجسد.

## الكوكب الجريح

نعيش اليوم على كوكب يشبه جسداً مثقلاً بالندوب.  
الحروب، والكراهية، والعنف، والخوف الجماعي، والاعتراب  
النفسي، كلها علامات على تعب الإنسانية من نفسها.  
لقد أصبح الإنسان قادراً على الوصول إلى النجوم، لكنه ما يزال  
عاجزاً عن الوصول إلى جاره أحياناً.  
يزداد التقدم التقني، بينما تتراجع القدرة على الإصغاء.  
تكبر المدن، وتصغر المسافات، لكن القلوب تتباعد في صمت.  
ولهذا يبدو الهدوء اليوم ضرورة حضارية لا ترفاً روحياً.  
إن البشرية تحتاج إلى استعادة فن الإصغاء، وفن التأمل، وفن  
التريث.  
تحتاج إلى أن تتعلم من الأشجار التي تنمو ببطء، ومن الفصول  
التي لا تستعجل قدومها.  
فالوجود كله يتحرك بإيقاع هادئ، إلا الإنسان الذي يصر على  
الركض نحو المجهول.

## الهدوء باعتباره مستقبل الإنسان

ربما يكون الهدوء أعظم اختراع لم ينجزه الإنسان بعد.  
ليس الهدوء السلبي الذي يشبه الموت البارد، بل الهدوء الحي  
الذي يشبه تنفس الغابات وطمأنينة البحار.  
ذلك الهدوء الذي يسمح للكائن بأن يكون نفسه دون خوف، وأن  
يلتقي بالآخر دون عدا، وأن يرى العالم دون رغبة في امتلاكه أو  
تدميره.  
حينها فقط يصبح السلام ممكناً. وحينها فقط يدرك الإنسان أن  
الوجود لم يكن يطلب منه الانتصار على الجميع، بل كان يطلب منه شيئاً  
أكثر بساطة وأكثر عمقاً:  
أن يتعلم كيف يسكن العالم دون أن يجرحه ، وكيف يترك للعالم  
فرصة أن يسكن فيه أيضاً.

## الصفة الموجبة وسكينة الأشياء تأملات في ماهية السلام الكامن في جوهر الوجود

### حين تتكلم الأشياء بلغتها الخفية

ليست الأشياء في العالم مجرد كتل صامتة أو موجودات معزولة تتجاور في الفراغ دون رابطة داخلية. لكل شيء لغته السرية، ونبرته الخاصة، ووجهه الذي يقدمه للوجود وللآخرين. وما نسميه عادة "صفة" ليس عرضاً خارجياً يلتصق بالشيء من الخارج ثم يزول، بل هو الوجه الذي تكشف به الذات عن حقيقتها، والطريقة التي تعلن بها حضورها في العالم.

فالوردة ليست زهرة لأننا أطلقنا عليها هذا الاسم، بل لأنها تحمل في تكوينها معنى التفتح والعطر والرقّة والجمال. والنهر ليس ماءً جارياً فحسب، بل هو صورة للعطاء والاستمرار والعبور. وكذلك الإنسان لا يكون إنساناً بمجرد وجوده البيولوجي، وإنما بما يحمله من صفات تجعل وجوده ممكناً للآخرين ومقبولاً بينهم.

ومن هنا تظهر الصفة الموجبة بوصفها أحد القوانين الخفية التي تحفظ توازن العالم وتمنحه قابلية الاستمرار.

### الصفة الموجبة باعتبارها هوية الوجود

في ذات الأشياء جميعها تسكن الصفة الموجبة كما تسكن النار في الجمر، وكما تسكن البذرة صورة الشجرة القادمة. إنها ليست إضافة طارئة، بل هي الإمكانية الأصلية التي تجعل الشيء ما هو عليه.

الصفة الموجبة هي التي تمنح الأشياء أسماءها وأدوارها ومواقعها داخل النسيج الواسع للواقع. بها تتحدد الوظائف، وتتضح المنافع، وتتوزع العلاقات، ويصبح للوجود نظام يمكن إدراكه والاطمئنان إليه. فالشمس تحمل صفة الإضاءة، والماء يحمل صفة الإرواء، والأرض تحمل صفة الاحتضان، والإنسان يحمل إمكانية الرحمة والمعرفة والمحبة.

إن كل صفة موجبة تشبه نافذة يطل منها الشيء على العالم، كما يطل العالم عليه في الوقت نفسه.

ولأن الأشياء لا تعيش منفصلة عن محيطها، فإن أثر الصفة لا يبقى حبيس الذات، بل يتجاوزها إلى ما حولها. فالعطر لا يحتفظ برائحته لنفسه، والنور لا يضيء ذاته وحدها، والرحمة لا تستطيع أن تبقى سجينة صاحبها.

هكذا يصبح الأثر الذاتي مطابقاً للأثر الخارجي.

فالشيء الذي يحمل نظاماً داخلياً يمنح شيئاً من هذا النظام لما يجاوره، والشيء الذي يسكنه الاضطراب يوزع اضطرابه على ما يحيط به.

وكأن العالم بأسره سلسلة من العدوى الوجودية المتبادلة؛ تنتقل فيها الصفات كما تنتقل الأمواج فوق سطح الماء.

### الأثر النفسي والاجتماعي للصفة الموجبة

حين تظهر الصفة الموجبة في شيء ما، فإنها تخلق بصورة تلقائية مناخاً من القبول والطمأنينة حوله.

إن الإنسان يميل بطبيعته إلى ما يبعث فيه الأمان، وينفر مما يهدد استقراره الداخلي. ولهذا كانت الأخلاق الحسنة، والوجوه المطمئنة، والكلمات اللينة، والنيات الصادقة، تمتلك قدرة عجيبة على إزالة المسافات بين البشر.

فالصفة الموجبة ليست قيمة أخلاقية فحسب، بل هي طاقة اجتماعية أيضاً. إنها تعيد رسم حدود العلاقة بين الذات بطريقة أكثر رحابة، وتمنح الآخرين فرصة للاعتراف المتبادل والعيش المشترك.

بقدر ما تحسن الصفة الشيء موضعياً، فإنها تحسنه عضوياً داخل الجماعة.

الكرم لا يصنع كريماً واحداً فقط، بل يصنع مناخاً من الثقة. والصدق لا ينقذ صاحبه وحده، بل يؤسس فضاءً اجتماعياً أكثر استقراراً. والعدل لا يمنح الفرد راحة الضمير فقط، بل يمنح الجماعة شعوراً بالأمان.

وهكذا يتحول الخير الفردي إلى بنية اجتماعية كاملة.

إن المجتمعات ليست سوى مجموع الصفات المتبادلة بين أفرادها.

فإذا كثرت الصفات الموجبة ظهر التعاون، وإذا كثرت الصفات السالبة ظهر الخوف، وإذا هيمن الخوف بدأت الجماعات في بناء الأسوار النفسية قبل الجدران الحجرية.

### السلام بوصفه ثمرة الصفات المحمودة

وراء كل صفة محمودة يقف السلام مثل ظل طويل لا يغادر صاحبه.

فالسلام ليس اتفاقاً سياسياً فقط، وليس غياباً للحرب وحده، بل هو حالة وجودية تبدأ من أعماق الذات قبل أن تظهر في الواقع الخارجي.

إن القلب الذي يحمل الرحمة يخلق سلاماً صغيراً حوله. والعقل الذي يحمل الحكمة يخفف من عنف العالم. والإنسان الذي يسكنه الإنصاف يمنح الآخرين شعوراً بأن الوجود ما يزال قابلاً للعيش.

لهذا يمكن القول إن السلام ليس مشروعاً خارجياً بقدر ما هو نتيجة طبيعية لتراكم الصفات الموجبة داخل الأفراد والأشياء.

وحين تتجاوز الصفات الإيجابية، فإنها تدخل في حالة من التآزر الخفي، فتقوي بعضها بعضاً، وتنتج طاقة أخلاقية أكبر من مجموع أجزائها المنفصلة.

فالرحمة تستدعي التسامح، والتسامح يستدعي الفهم، والفهم يستدعي الحوار، والحوار يفتح الطريق نحو السلام.

إن الصفات الموجبة تتصرف كما لو أنها كائنات تعرف بعضها بعضاً منذ زمن بعيد.

### وحدة الذات والصفة

ربما كان الخطأ الأكبر في النظر إلى الإنسان هو الاعتقاد بإمكانية الفصل الكامل بين الذات وصفاتها.

فالصفة ليست ثوباً ترتديه الذات متى شاءت ثم تخلعه متى شاءت، وإنما هي الطريقة التي تظهر بها الذات للعالم.

عندما نقول إن هذا الإنسان عادل أو كريم أو رحيم، فإننا لا نصف شيئاً خارجياً فيه، بل نصف الكيفية التي يسكن بها العالم داخله.

ولهذا بدا السلام محمولاً في موضع الراحة والقبول، ومحمولاً كذلك على استقرار الذات من استقرار صفاتها فيها.

فالذات المضطربة لا تستطيع إنتاج سلام مستقر، كما أن البحر الهائج لا يستطيع أن يعكس صورة السماء بوضوح. إن الداخل والخارج ليسا عالمين منفصلين، بل وجهان لمرآة واحدة.

وكل محاولة لإقامة سلام خارجي دون إصلاح البنية الداخلية للصفات تشبه محاولة بناء بيت فوق أرض متحركة.

### الرؤية الصوفية للصفات

أدرك المتصوفة منذ وقت مبكر أن الإنسان يتشكل بما يتخلق به من الصفات. ولهذا تحدثوا عن "التخلق بالأسماء الحسنى"، لا بمعنى امتلاكها، بل بمعنى السير في ضوئها.

فالرحيم يقترب من الرحمة، والعاذل يقترب من العدل، والحليم يقترب من الحلم.

وكانوا يرون أن الطريق إلى الطمأنينة ليس في امتلاك العالم، بل في تهذيب الصفات التي ننظر بها إلى العالم.

يقول أهل التصوف إن القلب يشبه مرآة؛ كلما تراكم عليها غبار الأنانية والخوف والغضب فقدت قدرتها على عكس الحقيقة، وكلما صُقلت بالمحبة والتواضع والصدق عادت الأشياء إلى الظهور على صورتها الأصلية.

ولعل هذا ما قصده النفري حين جعل الوقفة الحقيقية وقفة في الداخل قبل الخارج.

فالإنسان لا يعبر المسافات بقدميه وحدهما، بل يعبرها أيضاً بتحويلات صفاته.

### حين تتوقف الصفات عن العمل

إن استمرار السلام مرهون باستمرار الصفات التي تنتجه.

فكما تحتاج النار إلى الوقود، يحتاج السلام إلى تجدد دائم في مصادره الداخلية.

وعندما تتوقف الصفات الموجبة عن أداء وظائفها يبدأ التصدع بالظهور.

فإذا غاب العدل ظهر الظلم، وإذا غابت الثقة ظهر الشك، وإذا غابت الرحمة ظهر العنف.

والأخطر من ذلك أن انهيار صفة واحدة لا يبقى محصوراً في موضعه، بل ينتقل إلى محيطه كما تنتقل الشقوق في الزجاج.

إن الإنسان الغاضب يوزع غضبه، والخائف يوزع خوفه، والمحب يوزع طمأنينته.

وهكذا فإن تراجع الصفات الموجبة في فرد واحد قد يكون بداية اضطراب في دوائر أوسع بكثير مما نظن.

إن العالم أكثر هشاشة مما يبدو، وأكثر ترابطاً مما نتصور.

### إرادة السلام وإرادة الوجود

ليست إرادة السلام سوى الوجه الآخر لإرادة الوجود نفسه.

فكل موجود يسعى بطبيعته إلى الاستمرار، والاستمرار لا يتحقق في الفوضى المطلقة، بل في نظام يسمح للأشياء بأن تتجاوز دون أن تقني بعضها بعضاً.

لهذا يبدو السلام وكأنه القانون الخفي الذي ترغب به الموجودات جميعاً، حتى تلك التي لا تملك لغة للتعبير عنه.

الطيور تبحث عن أعشاش آمنة، والأشجار تمتد جذورها بعيداً عن الصخر القاسي، والإنسان يفتش طوال حياته عن مكان يستطيع فيه أن يضع خوفه جانباً لبعض الوقت.

وربما كان السلام في جوهره هو ذلك الشعور البسيط :

أن يجد الكائن مكانه الصحيح في العالم.

### العالم بوصفه حديقة صفات

لو نظرنا إلى الوجود من عل، لربما بدا العالم أشبه بحديقة واسعة لا تتجاوز فيها الأشياء بأجسادها فقط، بل بصفاتها أيضاً.

كل صفة موجبة تشبه شجرة تمد ظلها إلى ما حولها، وكل صفة سالبة تشبه حجراً يسقط في الماء فتتسع دوائر اضطرابه بعيداً.

ومن هنا تصبح مسؤولية الإنسان أكبر من مجرد أفعاله الظاهرة؛  
إنه مسؤول كذلك عن الصفات التي يسمح لها بأن تسكن داخله.  
فالصفات ليست أوصافاً عابرة، وإنما هي أشكال خفية من الوجود  
نفسه.

وإذا كان العالم يبحث في كل عصر عن طريق إلى السلام، فربما  
يبدأ هذا الطريق من السؤال الأكثر بساطة والأكثر عمقاً في الوقت ذاته :  
أي صفاتٍ نسمح لها أن تعيش فينا، وأيُّ عالمٍ نريد لتلك الصفات  
أن تبنيه حولنا؟

## التواصل بوصفه طريقاً إلى السلام الكائن لا يكتمل إلا بغيره

### الكائن الذي ينادي من داخله

ليس في هذا العالم شيء ساكن على الحقيقة. فحتى الحجر الذي نلظنه صامتاً، يحمل في أعماقه تاريخاً من الضغط والحرارة والتحول. وكل موجود، صغيراً كان أو عظيماً، يخفي في جوفه حركة لا تهدأ، ورغبة خفية في الامتداد خارج حدوده الضيقة نحو شيء آخر يكمله أو يكشف له صورته.

إن في قلب الوجود محركاً داخلياً، دينامياً، أشبه بنداء غامض يصعد من أعماق الأشياء نحو غيرها. ليس نداء الهيمنة أو الاقتراس، بل نداء المشاركة والتبادل والتكامل. فالشيء لا يسعى إلى تحقيق غايته الخاصة فحسب، وإنما يندرج - من حيث يدري أو لا يدري - في غرض كلي أوسع منه، كما تدخل القطرة في معنى النهر، وكما تذوب النغمة في اكتمال اللحن.

ولعل سر البقاء نفسه يكمن في هذا القانون البسيط والعميق: لا يبقى شيء منفرداً بنفسه. إن الوجود يدفع مخلوقاته دفعاً إلى التعاون مع المختلف، وإلى الاعتراف بأن الآخر ليس تهديداً دائماً، بل شرطاً من شروط الاستمرار.

ومن هنا يبدأ التواصل.

فالتواصل ليس زينة اجتماعية، ولا مجرد وسيلة لتبادل الكلمات والمصالح، بل هو وظيفة وجودية تمارسها الكائنات كي تظل في العالم، وكي تستمر الحياة في التدفق داخلها.

### التواصل بوصفه عضواً من أعضاء السلام

السلام ليس معاهدة سياسية فقط، ولا هدنة مؤقتة بين نزاعين، بل هو حالة عضوية في جسد الوجود، تشبه انتظام النبض في القلب أو جريان الدم في الشرايين.

وكما يحتاج الجسد إلى أعضائه ليبقى حياً، يحتاج السلام إلى التواصل ليبقى ممكناً.

إن التواصل هنا ليس مظهراً خارجياً أو إجراءً بروتوكولياً، بل هو جوهر العلاقة بين الكائنات. إنه الخيط الخفي الذي يشد أجزاء العالم بعضها إلى بعض، ويمنعها من السقوط في هاوية العزلة والريبة والخوف.

كلما ازداد التواصل اتسعت مساحات الفهم، وكلما اتسعت مساحات الفهم تراجعت احتمالات العدا.

إن الإنسان لا يحارب ما يعرفه جيداً بقدر ما يحارب ما يجهله. والجهل ليس نقصاً في المعلومات فقط، بل هو غياب اللقاء.

فالآخر البعيد يتحول بسهولة إلى صورة مشوهة في الذهن، وإلى فكرة مجردة قابلة للخوف والكرهية. أما حين يصبح وجهاً وصوتاً وتجربة وقصة إنسانية، تبدأ المسافات بالتلاشي.

لهذا فإن التواصل ليس طريقاً إلى السلام فحسب، بل هو صورة من صورته وتجسده من تجسده.

### الإنسان كائن تواصل، والإنسان كائن بالسلام

قال الفلاسفة إن الإنسان كائن اجتماعي، لكن العبارة ربما تحتاج إلى عمق إضافي: الإنسان كائن تواصل.

إنه يولد ضعيفاً لا يستطيع النجاة وحده، ويتعلم اللغة من أفواه الآخرين، ويكتشف ذاته عبر المرايا البشرية التي تحيط به.

فالإنسان لا يعرف نفسه إلا من خلال الآخر.

إن الطفل يدرك اسمه حين يسمعه لأول مرة من أمه، ويكتشف ملامحه النفسية عبر انعكاسها في عيون من يحبونه أو يرفضونه.

لهذا يبدو الوجود الإنساني أشبه بجسر لا يقف على ضفة واحدة.

وحين نقول إن الإنسان كائن تواصل، فإننا نستطيع أن نقول بالمعنى نفسه تقريباً: إن الإنسان كائن بالسلام.

فالعلاقة بين السلام والتواصل ليست علاقة ترف فكري، بل علاقة عضوية تسير بخطين متوازيين لا يفترقان.

تعظيم السلام يعني بالضرورة تعظيم أدوات التواصل وآلياته ومساحاته.

أما تحقير التواصل، أو تجفيف منابعه، أو تحويله إلى أداة للهيمنة والإذلال، فإنه يقود في النهاية إلى تدمير إرادة السلام نفسها.

ولعل أكثر الحروب دموية في التاريخ بدأت بانقطاع الحوار قبل أن تبدأ بإطلاق الرصاص.

فحين يصمت الجسر، تتكلم المتاريس.

### الآخر المختلف بوصفه ضرورة وجودية

يميل الإنسان بطبعه إلى الألفة، وإلى ما يشبهه ويشبه تصوراته عن العالم. أما المختلف فيثير شيئاً من القلق، لأن الاختلاف يضعنا أمام أسئلة جديدة ويهز يقيننا القديم.

غير أن الوجود نفسه قائم على الاختلاف.

فالليل ليس عدواً للنهار، والبحر لا يناقض اليابسة، والهواء لا يلغي النار.

إن الكون يعزف سيمفونيته الكبرى من تعدد الأصوات لا من تكرار الصوت الواحد.

ولهذا فإن المختلف ليس خطراً ينبغي التخلص منه، بل ضرورة ينبغي فهمها.

إن التواصل مع المختلف يشبه فتح نافذة في غرفة مغلقة منذ زمن طويل؛ يدخل الهواء، ويتحرك الغبار، وربما نشعر ببعض الاضطراب أول الأمر، لكن الحياة تعود إلى المكان.

إن الكائن الذي يرفض التواصل مع المختلف يشبه شجرة تحاول أن تعيش من دون تربة، أو نهراً يريد أن يجري من غير روافد.

ولعل أعظم ما يقدمه التواصل للإنسان أنه يفك طلاسم الآخر، ويعيده من صورة الوحش المتخيل إلى صورة الإنسان الممكن.

### الخوف بوصفه ابن الغموض

الخوف غالباً لا يولد من الحقيقة، بل من الغموض. إن الظلام لا يرعب الإنسان لأنه ظلام فحسب، بل لأنه يمنع من الرؤية.

والمجهول يملك قدرة عجيبة على تضخيم الصور داخل النفس الإنسانية.

حين ينقطع الحد الفاصل بين المعرفة والجهل، تبدأ المخيلة بصناعة الوحوش.

ومن وراء كل خوف طويل تنمو الكراهية ببطء، كما تنمو الأعشاب البرية في البيوت المهجورة.

الكراهية ليست سوى خوف فقد صبره.

والانسحاب من الآخر ليس سوى خوف اختار الصمت بدلاً من المواجهة.

ومن هنا تبدأ سلسلة التدمير الكبرى :

غموض يولد خوفاً ، و خوف يولد كراهية ، و كراهية تنتج عزلة ، و عزلة تنتهي غالباً بالعنف.

ولهذا فإن أول ما يفعله التواصل هو إضاءة المناطق المعتمة في النفس والعالم.

إنه لا يلغي الاختلاف، لكنه يرفع عنه حجاب الرعب.

### من اللقاء إلى اللقاء

في غياب التواصل يصبح العالم مجموعة جزر خائفة.

كل جماعة تنظر إلى الأخرى من وراء أسوار الشك. وكل فرد يتحول إلى قلعة صغيرة تدافع عن نفسها ضد الأشباح التي صنعتها مخيلته.

لكن اللقاء يغير طبيعة الأشياء.

فحين يجلس المختلفان إلى طاولة واحدة، تكتشف كل روح أن الأخرى تحمل الوجد نفسه والأمل نفسه والخوف نفسه من الفناء.

هناك فقط يبدأ الإنسان في رؤية أخيه الإنسان لا فكرته عنه.

ومن هنا تتحول دواعي العداء إلى دواعي صداقة، وتتحول المنافسة إلى منفعة مشتركة، ويصبح البقاء مشروعاً جماعياً لا فردياً.

فالوجود لا ينجو منفرداً.

حتى السفينة إذا غرقت لا تسأل الماء عن أسماء ركابها.

### الإشارة الصوفية إلى وحدة الطريق

في التراث الصوفي ظل العارفون يرددون أن الطريق إلى الله يمر عبر الخلق.

وكانوا يرون أن القلوب المتباعدة لا تستطيع أن تدرك معنى الوحدة الإلهية وهي غارقة في انقساماتها الصغيرة.

يقال إن جلال الدين الرومي كان يرى أن الجراح ليست دائماً مواضع الألم، بل هي أيضاً المواضع التي يدخل منها النور.

ولعل الاختلاف نفسه جرح جميل في جسد البشرية، لأنه يفتح باب التعارف والتكامل.

أما ابن عربي فقد لمح إلى معنى قريب حين تحدث عن اتساع القلب للصور جميعاً، وكأن القلب الإنساني الحقيقي ليس سجنًا لفكرة واحدة، بل وطنًا للمعاني كلها.

إن التصوف هنا لا يدعو إلى ذوبان الهويات، بل إلى تجاوز العداء الذي يصنعه التعلق المرضي بها.

فالماء يبقى ماءً سواء جرى في نهر أو في جدول، والإنسان يبقى إنساناً مهما اختلفت لغاته وألوانه وحدوده.

### **التواصل في دوائر الوجود**

يبدأ التواصل داخل الإنسان نفسه.

فالإنسان المنقسم على ذاته يعجز غالباً عن التصالح مع العالم.

إن الحوار الداخلي الهادئ بين الرغبات والعقل والذاكرة والخوف هو الخطوة الأولى نحو السلام الخارجي.

بعد ذلك تمتد الدائرة إلى الأسرة، حيث يصبح الإصغاء شكلاً من أشكال الحب.

ثم تتسع إلى المجتمع، حيث يتحول الاعتراف بالاختلاف إلى مصدر للقوة لا للتهديد. ثم تمتد إلى الدول والشعوب، حيث يصبح الحوار بديلاً عن الخراب، وتصبح المصالح المشتركة جسوراً تعبر فوق أنهار التاريخ المضطربة.

إن البشرية كلها تتحرك على خط تواصل واحد، وإن بدا أحياناً  
متكسراً أو متعثراً.

### البقاء بوصفه حواراً مستمراً

أن نحفظ كينونتتنا في هذا العالم المضطرب يعني أن نحفظ جسور  
التواصل بيننا.

فالتواصل ليس ترفاً حضارياً، بل شرط من شروط البقاء.

إن الكائن يبقى بقدر ما يفتح، ويذبل بقدر ما ينغلق.

والعالم اليوم لا يعاني من نقص الوسائل بقدر ما يعاني من نقص  
الإصغاء.

لقد أصبحت الأصوات أكثر من أي وقت مضى، لكن المعنى أقل  
حضوراً.

وربما كانت مهمة الإنسان المعاصر ليست أن يتكلم أكثر، بل أن  
يسمع أكثر.

فالسلم لا يبدأ في قاعات المؤتمرات الكبرى، بل يبدأ حين يقتنع  
إنسان واحد بأن الآخر ليس عدواً بالضرورة.

وعند تلك اللحظة فقط، يبدأ العالم بالخروج من ليله الطويل.

إن التواصل هو الاسم الآخر للأمل. والسلام هو الاسم الآخر  
للتواصل. وكلاهما، في النهاية، ليسا سوى محاولة الوجود الدائمة لكي  
يبقى الوجود.

## الاستقرار السكينة التي تحمل العالم على كتفيها

### الإنسان في زمن الضجيج

يبدو الإنسان المعاصر كمن يسير فوق جسر معلق بين هاويتين؛ خلفه تاريخ طويل من الحروب والمخاوف، وأمامه مستقبل لم يتعلم بعد كيف يمنح الطمأنينة لأبنائه. وبين هذين الحدين يقف القلب الإنساني متعباً، يفتش عن بقعة هادئة يضع فيها رأسه، وعن معنى يقيه التنشيطي، وعن استقرار لا تزعجه الرياح المتغيرة في الداخل والخارج.

لقد صار العالم أكثر ازدحاماً بالأصوات، وأكثر فقراً إلى الصمت. ازدحم بالاتصالات، لكنه افتقر إلى اللقاء. واتسعت فيه المدن حتى ضاقت الأرواح داخلها. ولم تعد الحروب تندلع على الحدود وحدها، بل بدأت تستقر في النفوس، وتستوطن الكلمات والنظرات والذاكرة، حتى غدا الإنسان يحمل ميدان معركته في صدره أينما ذهب.

في هذا الزمن، لا يعود الاستقرار مجرد حالة اجتماعية أو سياسية، ولا مجرد غياب للحرب والعنف، بل يصبح فعلاً وجودياً عميقاً، أشبه بمحاولة دائمة لترميم الكائن من الداخل، حتى يستطيع أن يمدّ يده إلى العالم دون خوف، وأن ينظر إلى الآخر دون رغبة في الإقصاء أو السيطرة.

إن السلام الذي لا يسكن النفس، لا يستطيع أن يسكن المدن.

### القبول بوصفه بداية السكينة

لعل أول ما يقدمه الإنسان للسلام في هذا العصر هو أن يتصالح مع موضعه في الوجود، وأن يقبل ذاته بما هي عليه، لا استسلاماً للعجز، بل إدراكاً لحدود الممكن الإنساني، واحتراماً للإيقاع الخاص الذي تنمو فيه الأرواح.

إن كثيرًا من أشكال العنف تبدأ من رفض الإنسان لمكانه، ومن خصومته الخفية مع صورته الداخلية. فحين يعجز المرء عن قبول ذاته، يبدأ بمحاولة إعادة تشكيل العالم كله وفق جراحه الخاصة. وهكذا تتحول الرغبات غير المروضة إلى نزاعات، ويتحول النقص الداخلي إلى خصومات خارجية.

القبول هنا ليس خضوعًا، بل حكمة.

إنه يشبه وقوف الشجرة في موضعها وهي تعلم أن الرياح لن تتوقف، لكنها تعلم أيضًا أن الجذور أبلغ من العواصف. فالاستقرار ليس أن تختفي المتغيرات، بل أن يصبح للإنسان مركز يعود إليه كلما تشتتت في الجهات.

وقد أشار المتصوفة إلى هذا المعنى حين تحدثوا عن "السكون إلى الله"، لا باعتباره انسحابًا من العالم، وإنما باعتباره استقرار القلب في نقطة لا تصل إليها الفوضى. وكانوا يرون أن أكثر الناس اضطرابًا ليس من فقد الأشياء، بل من فقد نفسه بين الأشياء.

فالإنسان الذي يجد موضعه في الوجود لا يحتاج إلى أن يزاحم الآخرين على مواضعهم.

### الاستقرار الداخلي وصناعة العالم الخارجي

كل مدينة تبدأ بفكرة، وكل حرب تبدأ بخوف، وكل سلام يبدأ بقلب مطمئن.

ليست المجتمعات سوى المجموع الكبير لما يجري في أعماق أفرادها. وإذا كان الإنسان يحمل الفوضى في داخله، فسوف يعيد إنتاجها في اللغة والسياسة والعلاقات والأسواق والمؤسسات. إن استقرارنا الخارجي ليس سوى المرأة المتأخرة لاستقرارنا الداخلي.

وحين نتأمل الانحرافات الكبرى التي عرفها التاريخ، نجد أن جذورها غالبًا ما كانت نفسية قبل أن تكون سياسية، ووجدانية قبل أن تكون اقتصادية. فالطمع يبدأ برغبة، والعنف يبدأ خوفًا، والكرهية تبدأ جرحًا لم يجد طريقه إلى الشفاء.

إن الرغبات حين تفقد بوصلتها تتحول إلى قوة عمياء. والميول حين تنفصل عن الضمير تصبح قادرة على هدم ما بنته القرون في لحظة واحدة.

لهذا فإن النفس ليست شأنًا فرديًا خالصًا، بل هي قضية اجتماعية بامتياز.

إن التربية على السكينة ليست أقل أهمية من التربية على المعرفة، وربما كانت المعرفة نفسها عاجزة عن إنقاذ العالم إذا لم تتكىء على نفوس مستقرة تعرف كيف تستخدمها.

فاليد التي تحمل الكتاب يمكنها أن تحمل السلاح أيضًا، لكن الذي يحدد الوجهة ليس العقل وحده، بل القلب الذي يقف خلفه.

### الاستقرار بوصفه حركة لا سكونًا

من أكثر الأوهام شيوعًا أن الاستقرار يعني الثبات المطلق أو غياب الحركة.

الحقيقة أن الاستقرار هو أكثر أشكال الحركة مشقة وكلفة. إنه الحراك الخفي الذي لا يراه أحد، لكنه يحمل العالم كله فوق كتفيه.

فالنجوم مستقرة لأنها تتحرك وفق نظام دقيق، والقلب مستقر لأنه لا يتوقف عن النبض، والبحر يبدو ساكنًا من بعيد رغم أن آلاف التيارات تعمل في أعماقه دون انقطاع.

كذلك الإنسان. إنه لا يستقر لأنه توقف عن الحركة، بل لأنه تعلم كيف ينظم حركته الداخلية فلا تتحول إلى فوضى.

إن الاستقرار أشبه بالمشي على حبل مشدود فوق فراغ كبير. يحتاج إلى يقظة دائمة، وإلى تصحيح مستمر للميلان، وإلى شجاعة لا تقل عن شجاعة المعارك الكبرى.

ولذلك كان الحفاظ على السلام أصعب من تحقيقه.

الحرب قد تشتعل في لحظة غضب، أما السلام فيحتاج إلى صبر طويل، وإلى عمل يومي هادئ لا تصفق له الجماهير غالبًا، لأنه يشبه عمل الجذور تحت التراب؛ لا يراه أحد، لكنه وحده يمنع الشجرة من السقوط.

### الإنسان المعلق بطرف قشة

ربما لم يكن الإنسان يومًا قويًا كما يتخيل. إنه كائن هش على نحو مدهش.

تكفي كلمة واحدة لتحطم سنوات من الطمأنينة، وتكفي خسارة صغيرة لتكشف مقدار اعتمادنا على الأشياء الزائلة.

نحن نسير فوق أرض تبدو ثابتة، لكنها تدور بنا في الفضاء بسرعة هائلة. ونبني حياتنا فوق احتمالات لا نملك السيطرة عليها بالكامل.

كأن الوجود كله يعلمنا درسًا واحدًا :

أن الاستقرار ليس معطى جاهزًا، بل مسؤولية مستمرة.

إن الإنسان يشبه من يتعلق بطرف قشة فوق بحر متحرك، ومع ذلك يواصل بناء البيوت، وكتابة القصائد، وإنجاب الأطفال، وزراعة الحدائق.

في هذا الإصرار يكمن جوهر الكرامة الإنسانية.

فلاستقرار ليس غياب الهشاشة، بل القدرة على الحياة رغمها.

### البعد الصوفي للاستقرار

كان أهل التصوف يفرقون بين السكون والسكينة.

السكون قد يكون موتًا للحركة، أما السكينة فهي حياة الحركة داخل نظام أعمق.

ولهذا كانوا يرون أن القلب إذا استقر في المعنى، لم تعد الأحداث الخارجية قادرة على اقتلعه بسهولة.

وقد قيل إن البحر حين تضطرب أمواجه يبقى عمقه هادئًا.

وهكذا القلب الإنساني.

ليس المطلوب أن تختفي العواصف، بل أن يصبح في الداخل عمق لا تصل إليه العواصف.

وكانوا يسمون ذلك أحيانًا "الطمأنينة"، وأحيانًا "الرضا"، وأحيانًا "السكون إلى الحق".

إنها حالة لا تلغي الألم، لكنها تمنع الألم من أن يتحول إلى خراب.

فالحزن جزء من الإنسان، أما اليأس فليس قدرًا محتومًا.

والخوف جزء من التجربة البشرية، أما الكراهية فغالبًا ما تكون خوفًا فقد طريق العودة إلى الحكمة.

### المجتمع بوصفه امتداداً للنفس

لا يمكن لمجتمع مضطرب نفسياً أن ينتج استقراراً طويل الأمد.  
إن المدن ليست الإسمنت والطرق والجدران، بل هي الحالة النفسية لسكانها وقد تجسدت في الحجر.

حين ينتشر القلق، يصبح العنف أكثر قابلية للانتشار. وحين يسود الإحباط، يصبح التطرف أكثر إغراءً. وحين يشعر الإنسان بأنه غير مرئي، يبدأ بالصراخ بأشكال مختلفة.

لهذا فإن العدالة ليست مجرد نظام قانوني، بل علاج جماعي للشعور بالإقصاء. والثقافة ليست ترفاً، بل وسيلة لحماية الروح العامة من التآكل. والحوار ليس رفاهية فكرية، بل أحد شروط البقاء المشترك.

إن المجتمع الذي يتعلم الإصغاء أقل حاجة إلى الصراخ. والمجتمع الذي يتعلم الاعتراف المتبادل أقل عرضة للكرهية.

### إرادة السلام

السلام ليس حالة تلقائية. إنه إرادة. وكل إرادة تحتاج إلى من يحرسها.

إن العالم لا ينهار دفعة واحدة، بل يتآكل تدريجياً حين يتوقف الناس عن حماية الأشياء الصغيرة: كلمة طيبة، عدالة بسيطة، اعتذار صادق، إنصاف متبادل، أو قدرة على الإصغاء.

إن السلام يبدأ غالباً من تفاصيل يظنها الناس غير مهمة.

من الأسرة. من المدرسة. من طريقة اختلافنا. من اللغة التي نستعملها حين نغضب.

فالإنسان الذي يتعلم كيف يدير غضبه، يساهم في حماية العالم أكثر مما يتصور.

### الاستقرار بوصفه مسؤولية الوجود

لولا هذا الحراك الصامت الذي نسميه الاستقرار، لما بقي سلام، ولما استطاعت الحياة أن تستمر لحظة واحدة.

إن الحضارة كلها تقف فوق جهود يومية غير مرئية يبذلها البشر لكي يمنعوا العالم من الانزلاق نحو الفوضى.

والسلام ليس هدية من التاريخ، بل ثمرة يقظة دائمة.  
وحين يغيب هذا الجهد، يبدأ الخراب بالتسلل ببطء، ويظهر  
الخوف، وتضيع الطمأنينة، ويتراجع الأمان، وتصبح الحياة نفسها أقل  
قدرة على الاستمرار.  
لذلك فإن أعظم ما يمكن أن يفعله الإنسان في هذا العصر ليس أن  
ينتصر على الآخرين، بل أن ينتصر على الفوضى التي تسكن داخله.  
فمن استقرت نفسه، خفّ ضرره. ومن خفّ ضرره، اتسعت  
رحمته. ومن اتسعت رحمته، صار جزءاً من سلام العالم.  
وربما كان السلام، في جوهره العميق، هو أن يجد الإنسان أخيراً  
مكاناً هادئاً في نفسه، ثم يدعو العالم كله إلى الجلوس معه هناك.

## التوازن بوصفه حكمة الوجود وسيرة السلام

### العالم وهو يصغي إلى ميزانه الخفي

ليس السلام حدثاً سياسياً عابراً، ولا هدنة مؤقتة بين نزاعين، بل هو في جوهره صورة عميقة من صور التوازن الذي يحكم الوجود منذ بدايته الأولى. فالعالم، في حركته الصامتة، لا يقوم على الغلبة المطلقة، ولا على انتصار شيء على شيء، بل على شبكة دقيقة من العلاقات التي تمنح لكل موجود موضعه، ولكل حركة قدرها، ولكل حضور حدوده وإمكاناته.

النجوم لا تتصادم لأنها تعرف مساراتها، والبحار لا تفيض على اليابسة إلا حين يختل ميزانها، والشجرة لا تطلب أن تكون جبلاً، كما أن الجبل لا يحاول أن يكون نهراً. لكل شيء مقامه الذي به يكتمل، وحدّه الذي به يستمر، ونصيبه من الوجود الذي به يشارك في سيمفونية الكون الكبرى.

ربما كان السلام، في معناه الأعمق، هو أن تدرك الأشياء مواضعها دون خوف، وأن تمارس حضورها دون رغبة في محو حضور الآخرين.

ذلك هو التوازن. وذلك هو السر الذي يجعل العالم، رغم الحروب والاضطرابات والانكسارات، يستمر في الدوران.

### التوازن قانون الكائنات

كل شيء يدرك موضعه بقدر معلوم.

ليست هذه العبارة وصفاً هندسياً للوجود، بل كشافاً عن قانون داخلي يحكم حياة الأشياء والكائنات. فالوجود لا يهب الموجودات حق الحضور فحسب، بل يمنحها أيضاً حدود ذلك الحضور، حتى لا يتحول الامتلاء إلى طغيان، ولا تتحول القوة إلى محو.

إن إدراك الكائن لموضعه يشبه معرفة النهر لمجره، ومعرفة الطائر لاتجاه الريح، ومعرفة الإنسان لحدود ذاته وإمكاناتها.

وحيث يفقد الشيء هذا الإدراك يبدأ اختلاله.  
فالإنسان الذي ينسى حدوده يتحول قلقه إلى رغبة في السيطرة،  
ورغبته في السيطرة تتحول إلى خوف، وخوفه يتحول إلى عداة للعالم.  
لهذا كان التوازن شكلاً من أشكال المعرفة.  
بل ربما كان أعلى أشكال المعرفة.  
إنه المعرفة التي تجعل الإنسان يدرك أنه جزء من كل، لا مركزاً  
للكل، وأنه صوت داخل الجوقة الكونية، لا الموسيقى كلها.  
وفي هذا المعنى يلتقي الفكر الفلسفي بالحكمة الصوفية.  
فالمتصوفة تحدثوا طويلاً عن مقام "الاعتدال"، حيث لا إفراط  
ولا تفريط، ولا تعلق ببتلع الروح، ولا زهد ينفي الحياة.  
كانوا يقولون إن القلب السليم هو القلب الذي يشبه مرآة ساكنة، لا  
تكسر الصور، ولا تحتفظ بها، بل تعكسها ثم تتركها تمضي.  
ذلك هو التوازن الداخلي. وذلك هو السلام.

### حفظ الذات من حفظ العلاقة

الشيء يحفظ نفسه ما دام يحفظ اتزانه مع بقية الأشياء.  
فوجود ليس عزلة، وإنما شبكة من العلاقات المتبادلة.  
النهر يحتاج الجبل. والشجرة تحتاج التربة. والإنسان يحتاج  
الإنسان.  
ولا يستطيع كائن أن يستمر منفرداً مهما بلغت قوته.  
إن انهيار العلاقات هو بداية انهيار الكائن نفسه.  
ولهذا فإن حفظ الذات لا يكون بالانغلاق، وإنما بحسن الجوار  
الوجودي مع الآخرين.  
إن الإنسان الذي يحارب العالم باستمرار يخسر نفسه قبل أن  
يخسر العالم. والأمم التي تبني وجودها على نفي الآخرين تحمل في  
داخلها بذور فنائها منذ اللحظة الأولى.  
فالسلم ليس أخلاقاً إضافية يمكن الاستغناء عنها، بل شرط من  
شروط البقاء.

إنه الهواء الذي تتنفسه العلاقات. وحين يختفي الهواء تختنق الحياة.

من هنا تصبح إرادة السلام امتداداً طبيعياً لإرادة الوجود نفسها. فالوجود يريد أن يستمر. والاستمرار يحتاج إلى التوازن. والتوازن يحتاج إلى السلام.

كأن هذه المفاهيم ليست إلا أسماء متعددة لحقيقة واحدة.

### السلام بوصفه حركة لا سكوناً

كثيراً ما يُفهم السلام على أنه غياب الحركة، أو انطفاء الصراع، أو سكون العالم.

لكن السلام الحقيقي ليس موت الحركة، بل انتظامها. فالكون كله يتحرك. الأرض تدور. والفصول تتعاقب. والجسد يتغير. والروح تنمو ثم تنكسر ثم تتعافى.

الحياة نفسها ليست سوى تغير دائم.

غير أن هذا التغير لا يتحول إلى فوضى لأن هناك ميزاناً خفياً يحكمه.

إن السلام يشبه رقص الكواكب حول الشمس.

حركة مستمرة. لكنها لا تصطم. اختلاف دائم. لكنه لا يتحول إلى حرب.

وهكذا يصبح التوازن دينامية لا جموداً، وحركة لا ركوداً، وتجديداً لا توقفاً.

إن السلام ليس بحيرة ساكنة. إنه نهر يعرف طريقه.

### الدور والطور وحكمة المرحلة

الحياة لا تسير في خط مستقيم. إنها أطوار وأدوار ومواسم. لكل مرحلة حكمتها. ولكل ظرف منطقته.

والإنسان الحكيم ليس من يقاوم الزمن، بل من يعرف كيف يسكنه. إن العيش داخل الدور، وفي حدود الطور، هو نوع من المصالحة مع قوانين الوجود.

فالطفولة لها سلامها. والشباب له قلقه الضروري. والشيوخوخة لها تأملها البطيء.

كما أن المجتمعات أيضاً تمر بمراحل النمو والتعب والتجدد والانكسار.

ولا يمكن إجبار الزمن على القفز فوق مراحل.

ذلك أن الثمرة التي تُقطف قبل نضجها لا تكون ثمرة، بل خسارة مؤجلة.

إن السلام هنا يعني قبول الإيقاع الطبيعي للأشياء. ليس استسلاماً، بل فهماً. وليس خضوعاً، بل حكمة.

وقد كان أهل التصوف يسمون ذلك "الرضا"، لا بمعنى التنازل عن الفعل، بل بمعنى الانسجام مع حركة الحكمة الإلهية في العالم.

فالرضا ليس موت الإرادة. إنه سلام الإرادة.

### لا غالب ولا مغلوب

ربما يكون هذا المبدأ من أكثر المبادئ قدرة على حماية الإنسان من أوهام القوة.

فالغلبة المطلقة لا وجود لها إلا في الخيال.

وكل انتصار يحمل داخله بذور هزيمة مستقبلية إذا تحول إلى استعلاء.

إن الطبيعة نفسها لا تعرف منطق المنتصر والمهزوم. فالليل لا يهزم النهار. والشتاء لا ينتصر على الصيف. إنهما يتعاقبان في دورة تحفظ العالم من الاختلال.

وفي العمق النفسي يحمل الإنسان رغبة قديمة في الانتصار الكامل. يريد أن يكون الأكثر حضوراً، والأكثر تأثيراً، والأكثر امتلاكاً للحقيقة. لكن هذه الرغبة نفسها هي التي تنتج الخوف والعداء والصراع.

أما السلام فيبدأ حين يدرك الإنسان أن وجود الآخر لا ينتقص من وجوده.

وأن الضوء لا يخسر شيئاً حين تضيء شمعة أخرى.

إن مبدأ "لا غالب ولا مغلوب" ليس شعاراً أخلاقياً فحسب، بل رؤية وجودية للعالم. إنه انتصار البقاء على الفناء. وانتصار المشاركة على الإلغاء. وانتصار الحياة على رغبة الموت الكامنة في الصراع الدائم.

### رفاه الوجود ونزع ثياب القلق

الإنسان المعاصر يعيش غالباً في حالة استنفار دائم. الخوف من المستقبل. الخوف من الفقد. الخوف من الفشل. الخوف من الآخرين.

وكان القلق أصبح اللغة السرية للعصر. غير أن القلق ليس قدراً أبدياً. إنه غالباً نتيجة اختلال العلاقة بين الإنسان والعالم.

حين يشعر الإنسان بأنه يحمل الكون كله على كتفيه، ينهار. وحين يظن أنه مسؤول عن كل شيء، يختنق. أما حين يدرك حدوده، ويقبل نصيبه من الوجود، يبدأ السلام بالتسلل إلى قلبه.

إن رفاه الوجود ليس وفره الأشياء، بل خفة الروح. ليس كثرة الامتلاك، بل قلة الخوف.

ولعل المتصوفة كانوا يشيرون إلى ذلك حين تحدثوا عن "سعة القلب".

فالقلب الواسع لا تضيق به الأحداث، ولا تكسره الخسارات، لأنه لا يستمد وجوده من الخارج وحده. إنه يسكن مركزاً أكثر عمقاً وثباتاً.

### الإنسان بوصفه ميزاناً صغيراً للكون

الإنسان ليس مجرد ساكن في هذا العالم. إنه صورة مصغرة عنه. في داخله شمس العقل. وقمر الذاكرة. وبحار العاطفة. وعواصف الرغبة.

وفي داخله أيضاً إمكانية التوازن وإمكانية الفوضى.

وحين ينجح الإنسان في تحقيق السلام بين هذه العناصر يصبح أشبه بكون صغير مستقر.

إن الحروب الكبرى تبدأ غالباً من حروب صغيرة داخل النفس.

والسلام العالمي يبدأ من سلام داخلي متوازن وغير مرئي.

ولهذا كان إصلاح الإنسان لنفسه فعلاً سياسياً واجتماعياً بقدر ما هو فعل روحي. فالذي يتصالح مع ذاته يقلل احتياجه إلى صناعة الأعداء. والذي يعرف نفسه لا يخاف اختلاف الآخرين.

### العالم بوصفه درباً إلى السكينة

في نهاية الأمر ربما لا يكون السلام مشروعاً خارجياً بقدر ما هو طريقة في النظر إلى العالم.

أن ترى الأشياء في أماكنها. والناس في اختلافهم. والحياة في تغييرها. والزمن في عبوره. أن تقبل الحركة دون خوف. والتحول دون هلع. والنقص دون شعور بالهزيمة.

إن التوازن ليس حالة نصل إليها ثم نقيم فيها إلى الأبد. إنه ممارسة يومية تشبه تعديل الشراع أمام الريح.

كل يوم يحتاج الإنسان إلى إعادة اكتشاف ميزانه. وكل مجتمع يحتاج إلى إعادة بناء اعتداله. وكل حضارة تحتاج إلى مراجعة علاقتها بالقوة والخوف والرغبة في الهيمنة.

وعندها فقط يصبح السلام ممكناً. لا بوصفه حلمًا بعيداً، بل بوصفه الشكل الطبيعي للوجود حين يتذكر حكمته الأولى.

فالكون، منذ بدايته، لم يكن يبحث عن غالب ومغلوب. كان يبحث عن استمرار النور. وعن بقاء الأغنية. وعن أن تظل الحياة، رغم كل شيء، قادرة على أن تقول نعم للوجود.

# الجسد الذي يتكلم... والنهر الذي ينمو

تأملات في الصحة والنماء

بوصفهما شرطين للسلام الإنساني

## الفصل الأول: حين يتكلم الجسد بلغة الألم

ليس الجسد مجرد مادة تحملنا من مكان إلى آخر، ولا آلة صامتة تؤدي وظائفها في حياء بارد. إن الجسد ذاكرة أخرى، ذاكرة لا تحفظ الكلمات بل الندوب، ولا تسجل الحوادث بل ارتجافاتها الخفية في الأعصاب والعضلات والدم. وحين يعجز اللسان عن القول، يبدأ الجسد حديثه الطويل.

إنه يتكلم بلغته الخاصة، لغة الحمى والارتعاش، لغة الأرق والاختناق، لغة التعب الذي لا يعرف له صاحبه سبباً واضحاً. وكثيراً ما يكون المرض، في جوهره العميق، صيحة وجودية أطلقها الجسد بعدما تأخر الجميع في الإصغاء إليه.

حين يُقهر الإنسان، أو يُحاصر بالخوف، أو يُدفع إلى الجوع والحرمان، لا يبقى ذلك كله خارج الجسد، بل ينزل فيه نزول المطر في التراب اليابس. يسكن القهر العظام، ويقيم الخوف في الصدر، ويصير الحرمان جزءاً من إيقاع القلب نفسه.

ولذلك فإن العنف لا يبدأ بالسلاح، بل يبدأ في اللحظة التي يُسلب فيها الجسد حقه في الطمأنينة. فالإنسان الجائع لا يجوع إلى الخبز وحده، بل يجوع إلى المعنى وإلى الاعتراف وإلى الشعور بأنه جزء من العالم لا فائض عنه فيه. والإنسان المقهور لا يفقد حرته فقط، بل يفقد تدريجياً ثقته في الآخرين وفي نفسه وفي الحياة بأسرها.

إن قمع الجسد هو الوجه الخفي لقمع السلام.

فالسلام ليس اتفاقاً سياسياً فحسب، ولا غياباً للمعارك في الشوارع، بل هو قبل ذلك كله حالة من المصالحة الداخلية بين الإنسان وجسده، بين حاجاته الأساسية وحقه في الكرامة، بين روجه والعالم الذي يحيط بها.

كلما سقط الجسد في أمراض القهر والجوع والإذلال، تسربت إلى أعماقه طبقات كثيفة من الكبت، حتى تصبح الكراهية شكلاً من أشكال الدفاع عن النفس، ويغدو الانتقام محاولة بائسة لاستعادة التوازن المفقود.

إن الإنسان الذي يتعرض طويلاً للإهانة قد يبدأ، من حيث لا يشعر، في إعادة إنتاج الإهانة ذاتها تجاه الآخرين. وهكذا تنتقل الجراح من جسد إلى جسد، ومن جيل إلى جيل، كما لو أن الألم ميراث سري تتناقله الأرواح.

ولعل أكثر ما يخيف في القهر أنه لا يكتفي بتخريب الضحية، بل يحولها أحياناً إلى صورة أخرى من جلاها.

### الفصل الثاني: اضطراب الداخل واضطراب العالم

الجسد المضطرب لا يعيش وحده اضطرابه، بل ينشر دوائره في كل ما يحيط به.

فالإنسان الذي يحمل في داخله خوفاً دائماً، يرى العالم مكاناً معادياً. والذي يسكنه الحرمان يرى في الآخرين خصوماً على الموارد والفرص والمعنى. وهكذا تتحول الأزمة النفسية الفردية شيئاً فشيئاً إلى أزمة اجتماعية، ثم إلى ثقافة كاملة من الريبة والعداء.

إن المجتمعات ليست سوى مجموع أجسادها وأرواحها الفردية.

وإذا امتلأت الأجساد بالخوف، امتلأت المدن بالأسوار. وإذا امتلأت الأرواح بالكراهية، امتلأت اللغات بالعنف، وصارت الكلمات نفسها سكاكين صغيرة تنتقل بين الناس.

من هنا يمكن القول إن صحة الجسد تتناسب طردياً مع صحة السلام.

فالسلام يبدأ من الطعام قبل الشعارات، ومن الأمان قبل الخطب، ومن الكرامة قبل القوانين. إنه يبدأ من شعور الإنسان بأن جسده ليس ساحة حرب، وأن حياته ليست معركة دائمة من أجل البقاء.

ولعل المتصوفة حين تحدثوا عن السكينة لم يقصدوا فقط صفاء الروح، بل ذلك الانسجام العميق بين الداخل والخارج، بين النبض والمعنى، بين التنفس وطمأنينة الوجود.

كانوا يقولون إن القلب إذا صفا اتسع للعالم كله.

وربما يمكننا أن نقول اليوم: إن الجسد إذا اطمأن، أصبح السلام ممكناً.

### الفصل الثالث: النماء بوصفه قانون الوجود

الوجود حركة.

كل ما يتوقف عن الحركة يبدأ رحلته نحو الفناء.

النهر الذي يتوقف عن الجريان يتحول إلى مستنقع، والهواء الذي لا يتحرك يفسد، وكذلك الإنسان حين يتوقف عن النمو. إن الكائن الحي لا يوجد بما هو عليه الآن، بل بما يستطيع أن يصير إليه غداً.

ولهذا فإن النماء ليس رفاهية فكرية، بل شرط من شروط الحياة نفسها.

فالإنسان كائن مشروع، لا كائن مكتمل.

وكل لحظة يظن فيها أنه وصل إلى نهايته، يكون قد بدأ في التراجع دون أن يشعر.

إن التغيير ليس خيانة للذات، بل وفاء أعمق لها.

فالذات التي لا تتغير تشبه بيتاً مغلق النوافذ، يحتفظ بأثاثه جيداً لكنه يفقد الهواء والضوء معاً.

وكلما ارتقى الإنسان في مراتب التغيير، ازداد تحرراً من سطوة الماضي، وازداد اتصالاً بالحاضر والمستقبل.

إن النمو هو القدرة على مغادرة النسخة القديمة من أنفسنا دون كراهية لها ودون عبودية لها.

#### الفصل الرابع: الماضي بوصفه ظلاً لا وطناً

الكراهية ابنة الماضي.

والعنف غالباً ما يكون محاولة لإعادة معركة انتهت منذ زمن بعيد.

فكثير من الصراعات التي تبدو معاصرة ليست سوى ذاكرة قديمة ترتدي ثياباً جديدة.

حين نعجز عن تجاوز جراح الأمس، نصبح أسرى لها، ونبدأ في تفسير العالم كله من خلالها.

عندها لا نرى الإنسان كما هو، بل كما يشبه شخصاً آذانا يوماً ما، ولا نرى الحاضر كما هو، بل كما يخيفنا أن يكون.

إن أخطر ما يمكن أن يحدث للإنسان ليس أن يحمل ماضياً مؤلماً، بل أن يتحول ذلك الماضي إلى هويته الوحيدة.

لذلك فإن التمسك بالأفكار الراسبة في قاع النفس ليس وفاء للحقيقة، بل قد يكون استمراراً خفياً للعنف.

الفكرة التي لا تنمو تتحول إلى صنم.

والصنم لا يطلب الفهم، بل الطاعة.

أما الفكر الحي فإنه يشبه الشجرة؛ جذوره في الأرض، لكنه يمد أغصانه دائماً نحو السماء.

ولهذا لا ينبغي للإنسان أن يكون مستودعاً للأفكار، بل مجرى لها.

نحن نهر من التفكير، ولسنا مستنقعاً من الأفكار.

النهر يظل هو نفسه رغم تغير مياهه، أما المستنقع فيظل يحتفظ بالماء نفسه حتى يفسد.

### الفصل الخامس: بين الحفظ والتفكير

ثمة فرق هائل بين أن نحفظ الأفكار وأن نفكر بها.

الحفظ يجمع، أما التفكير فيولد.

الحفظ يكرر، أما التفكير فيخلق.

والأمم التي تكتفي بالحفظ تتحول مع الزمن إلى متاحف كبيرة، جميلة أحياناً، لكنها عاجزة عن إنتاج المستقبل.

أما الأمم التي تفكر فإنها تظل قادرة على التجدد مهما كانت جراحها عميقة.

إن الحفظ وحده يجعل الإنسان حارساً للماضي، بينما التفكير يجعله شريكاً في صناعة الغد.

الأول يقود غالباً إلى الخوف، لأن كل جديد يبدو تهديداً لما هو محفوظ، أما الثاني فيقود إلى السلام، لأن الجديد يصبح فرصة للفهم لا سبباً للذعر.

ولعل كثيراً من أشكال العنف في العالم ليست إلا خوفاً متتكرراً في هيئة يقين.

فالإنسان الواثق من فكرته لا يحتاج إلى إقصاء الآخرين، أما الإنسان المرتاب فيها فإنه يلجأ أحياناً إلى القوة لكي يحمي هشاشته الداخلية.

### الفصل السادس: التصوف باعتباره نمواً في الروح

كان أهل التصوف يقولون إن السير إلى الحقيقة لا يتم بخطوة واحدة، بل بمقامات وأحوال.

وكانوا يرون أن الثبات الحقيقي ليس الوقوف في المكان نفسه، بل الاستمرار في السير نحو الأفق.

فالطريق إلى النور لا يُقطع باليقين النهائي، وإنما بالتجدد الدائم.

ولذلك قال بعضهم: "من ظن أنه وصل فقد انقطع".

إن الوصول الكامل نوع من الموت الرمزي للفكر.

أما الحياة فتسكن في السؤال، وفي الدهشة، وفي القدرة على إعادة اكتشاف العالم كل يوم.

الروح التي تنمو تشبه شجرة زيتون قديمة؛ جذورها تضرب عميقاً في الأرض، لكنها تظل تمنح ثماراً جديدة في كل موسم.

### خاتمة: من أجل سلام يبدأ من الداخل

لا يولد السلام في المؤتمرات وحدها، بل يولد أولاً في الجسد الذي لم يعرف الإدلال، وفي العقل الذي لم يتوقف عن النمو، وفي الروح التي تعلمت أن تتحرر من أثقال الأمس.

الجسد المطمئن أقل ميلاً إلى العنف.

والفكر المتجدد أقل حاجة إلى الكراهية.

والروح التي تعرف طريقها إلى السكينة أقل رغبة في الانتقام.

لذلك فإن حماية الصحة ليست شأنًا طبيًا فقط، بل مشروعاً أخلاقياً وحضارياً.

كما أن حماية النمو الفكري ليست ترفاً ثقافياً، بل دفاعاً عن السلام نفسه.

فالإنسان لا يهلك حين يجوع جسده فقط، بل حين يتوقف عن التغيير.

ولا يضيع العالم حين تكثر فيه الحروب وحدها، بل حين تتوقف أنهاره الداخلية عن الجريان.

وما دام في الإنسان قدرة على الإصغاء إلى جسده، وشجاعة لمراجعة أفكاره، واستعداد للسير نحو صورة أرحب من ذاته، فإن السلام يظل ممكناً، ولو تأخر مجيئه.

## مراجع

1. إريك فروم بتشريح التدمير البشرية.
2. ميشيل فوكو بالمراقبة والعقاب.
3. فيكتور فرانكل بالإنسان يبحث عن معنى.
4. موريس ميرلوبونتي بفينومينولوجيا الإدراك.
5. أبو حامد الغزالي بإحياء علوم الدين.
6. جلال الدين الرومي بالمثلثوي.
7. ابن عربي بالفتوحات المكية.
8. مارتن هايدغر بالوجود والزمان.
9. هربرت ماركوز بالإنسان ذو البعد الواحد.
10. عبد الوهاب المسيري بالفلسفة المادية وتفكيك الإنسان. / دراسات في الإنسان والحضارة
11. إيمانويل ليفيناس: الكلية واللامتناهي.
12. سيغموند فرويد: الحضارة وسخطها.
13. مارتن بوبر: الأنا والأنث.
14. عبد الكريم الجيلي: الإنسان الكامل.
15. إدغار موران: منهج الفكر المركب.
16. هانا أرندت: في العنف.
17. يوهان غالتونغ: دراسات السلام والصراع.
18. إدموند هوسرل – الظاهراتية والعالم المعيش.
19. إريك فروم – فن الحب.
20. كارل يونغ – الإنسان ورموزه.
21. عبد الرحمن بدوي، الزمان الوجودي.
22. مالك بن نبي، شروط النهضة.
23. مصطفى محمود، رحلتي من الشك إلى الإيمان.

24. مارتن بوبر، "الأنا والآخر"
25. إيمانويل ليفيناس، يورغن هابرماس، "نظرية الفعل  
التواصلي."